

عصر ازدهار

١ - أين الحقيقة:

كتب الكثير عن عصر السلاطين، وأسهم الكثيرون في الكتابة والتقييم، وتفاوتت الآراء ما بين المدح والذم، مع كل هذا لا بد أنك لاحظت وشعرت بإنكار بعض ما كتب ولأسباب عديدة، وفي رأيي غالبية الآراء السلبية ناجمة عن عدم معرفة الكتاب بحقيقة أولئك السلاطين، وعدم معرفتهم عادات وتقاليد الشراكسة، ونظامهم الذي ساروا عليه منذ القدم، وحتى الآن. وتلاحظ أن بعضهم يستغريون بل يستهجنون بعض العادات الشركسية، والسبب واضح وهو أنهم لا يرون سوى الظاهر، ولا يكلفون أنفسهم عناء سبر الأغوار من جهة، أو لأنهم ضيقوا الأفق والمعرفة، وليس لديهم اطلاع كاف على عادات الشعوب، قد تتغير بعض العادات والتقاليد، ولكن بعضها صعبة التغيير، وتبقى ظاهرة ومستمرة، وتعبّر عن شخصية الأمة، هذا لا يقتصر على الشراكسة فقط بل يوجد لدى كل شعوب العالم حتى أنك تجد لكل حارة عادة خاصة بها تتبع في الأفراح والأحزان، وقد يعجب البعض منها، وقد يقال أن عادة ما مخالفة للدين أو الآداب أو المنطق أو تدل على التخلف، ولكن رغم ذلك ومع اقتناع البعض بعدم ملائمتها لمتطلبات العصر، أو الظروف السائدة لكنها تتبع، ويكون الجواب: إنه العرف والعادة، أنها التقاليد، إنها جذور قوانيننا... الخ.

آ. علاقة العرب ببلاد الشركس:

نشأت علاقة بين بلاد القفقاس والتي تسمى حالياً بشمال القفقاس، وبين المسلمين الذين انتشروا في البقاع المختلفة ينشرون الدين الإسلامي الحنيف حيث (بدأ الإسلام في القفقاس سنة ٢٢ للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والموافقة سنة ٦٠٠ ميلادية على يد مجاهدي العرب الذين جاؤوا)^(١)، إلى بلاد القفقاس فاتحين من جهة باب الأبواب، وهي جنوب بلاد الداغستان المعروفة

^١ - تاريخ الفوقاز ص ٢١٨ - ٢١٩ شمال القفقاس تنوع في إطار الوحدة ص ٦ قفقاسيا ص ١٣.

حالياً، وباب الأبواب الذي يقع بين هزوين وسلسلة جبال القففاص من الجهة الشرقية لها^(١).

نذكر بعض قواد المسلمين الذين ذهبوا إلى بلاد القففاص: ففي عهد الخليفة الأموي عبد الله بن مروان عين مسلم بن أبو سلمة عاملاً على العراق فأرسل إلى القففاص جيشاً بقيادة القائد شبيب النهرواني، وبعد ذلك أرسل أيضاً جراح بن عبد الله بجيش. وفي عهد هشام بن عبد الملك أرسل جيشاً بقيادة (مسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة على رأس جيش جديد قوي، مر من باب الأبواب... وبعد خمسين سنة، وكانت الدولة الأموية قد انهارت وقامت مكانها الدولة العباسية، وفي خلافة أبي جعفر المنصور أرسل الخليفة جيشاً إلى شمال القففاص بقيادة حفيده أبو مسلم الروانكي، وكان إدارياً وعادلاً)^(٢)، ويذكر أيضاً بأنه تأسست لأول مرة إمارة (طارق) الشامية، وكانت مدينة طارق القديمة عاصمة الإمارة وتعرف اليوم باسم بتروفسك، حينما غير الروس الكثير من أسماء المدن والمواقع^(٣)، وفي القرن الحادي عشر للميلاد انسحبت القوات العربية من القففاص ولم يبق لها وجود^(٤)، كما ذكر كان من أسباب الانسحاب هو محاولة الصليبيين العودة إلى بلاد الشام، ومع انسحاب العرب أتى معهم العديد من المسلمين غير العرب، وكان منهم الكثير من الشرکس الذين كانوا في جيش المسلمين، وكذلك الأقوام الأخرى مثل التركمان والأترک وغيرهم.

ب. قدوم الشرکس للبلاد العربية قديماً:

بعد أن ضعفت الدولة العباسية التي اعتمد الكثير من خلفائها على غير العرب، استلم هؤلاء المسلمون غير العرب مهمات مختلفة، وأصبحوا قواداً ووصل البعض إلى ولاية لبعض النواحي من البلاد الإسلامية، ثم أصبحت تلك الولايات تابعة اسمياً

^١ - الوطن في أدب الشراکسة ص ٧٣ قففاص ص ١١ - ١٤ - ٣٠.

^٢ - موسوعة تاريخ القففاص والجرکس ص ٢٧٤.

^٣ - تاريخ الفوقاز ص ٢٥٥.

^٤ - موسوعة تاريخ القففاص والجرکس ص ٢٤٥ الوطن في أدب الشراکسة ص ٧٤.

للخلافة العباسية، وبدأ كل والٍ يستقدم عناصر من جنسه ليثبت حكمه ولعدم التفكير بأي تغيير لسلطتهم (وكان العرب الغالبية الساحقة من سكان دمشق، وكانوا يستعملون اللغة العربية في البيت والمدرسة والسوق، ولكن جماعات من غير الناطقين بالضاد وفدوا على دمشق في أيام المماليك، أو لعلهم أتت بهم السلطات الحكومية عمداً. فالتركمان جاؤوا أيام آل زنكي إن لم يكن قبلاً، وجاء صلاح الدين بالأكرد، كما أن الجنود الشراكسة والأتراك واكبوا الحكام وأمراء الأجناد من المماليك)^(١).

ينعت بعض الكتاب أولئك الحكام بأنهم من المماليك، أو جيشهم من المماليك دون تعيين، وتعرف ما المقصود بذلك. وأحياناً يقال إننا كلنا ملك لله وما شابه ذلك. وربما ساعدت اللغة العربية بكلماتها إلى تغيير معنى بعض الكلمات التي عنيت معاني غير التي تتداول في هذه الأيام. كما أن الكثيرين وصفوا السلاطين بأنهم من العبيد ثم شراؤهم ولكن في الوقت نفسه تجد أن ما كتب عنهم لا يستقيم مع الواقع والمنطق وسأضرب بعض الأمثلة عن كيفية استخدام البعض.

ذكر عن وصول أنس والد برقوق أنه (في يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة، وصل أنس بن عبد الله العثماني والد برقوق إلى القاهرة، فخرج ولده والعسكر للالتقاء، فالتقاه بعكرشا، ووصل صحبته قاضي حلب كمال الدين المصري وقاضي دمشق ولي الدين البقاء، ونزل في ذلك الموكب بالخانقاه ومد ولده سماطاً عظيماً. وأقعده في صدره، وقعد عن يمينه أيدمر الشمسي وعن يساره أقتمر عبد الغني، وقعد برقوق دون أيدمر. وكان أنس أعجمياً لا يعرف بالعربي ولا بالتركي حرفاً، ثم ركب معه إلى القاهرة وأعطاه مقدمة ألف)^(٢)، مع العلم عندما جاء أنس - أو أنص كما يكتبها البعض - إلى مصر لم يكن ابنه برقوق سلطاناً كان مجرد أمير فقط، ثم ما الذي جعل وفور وصوله إلى حلب ودمشق يستقبل فيهما، ثم يرافقه قاضي حلب ودمشق مع العلم بأن للقاضي في ذلك العصر مكانة مرموقة، ثم هذا

^١ - دمشق في عصر المماليك ص ١٣١.

^٢ - إنباء الغمر بأبناء العمر ص ٢٤٩.

للاستقبال الحافل المهيب وإعطاء رتبة أمير على ألف من الأمراء الصغار رتبة ولكل منهم ما لا يقل عن عشرة أتباع حسب التنظيمات العسكرية لذلك العصر، فهل يمكننا القول أو حتى مجرد التفكير بأن أنس جلب كعبد مشترى؟

مثال آخر عن الأمير أيتمش الذي بنى مدرسة بالقرب من القلعة في القاهرة (فسال السلطان في شرائه منهم - أي شراء أيتمش - فاشتراه منهم بمائة ألف درهم ثم أعتقه وأمر له بأربع مئة ألف درهم وعد ذلك من الغرائب، فإن جرجي - أستاذ أيتمش - مات سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة هجرية - فأقام أيتمش سبع عشرة سنة في الرق يتصرف تصرف الأحرار إلى أن صار أكبر الأمراء بالديار المصرية^(١)، والكاتب نفسه يستغرب بعد ما حدث من الغرائب. فإذا كان عبداً كيف كان يتصرف كالأحرار؟ ويصبح أميراً، ثم كيف يشتري بمائة ألف ثم يعطى له مباشرة أربع مئة ألف؟.

جاء في فقرة أخرى من نفس الكتاب الذي سقت منه المثلين السابقين (في رجب ٧٩٠هـ قدم بعض التجار بجماعة من أقارب السلطان الجراكسة فخرج عليهم طائفة من الفرنجة الجنوبية فأسروهم، فبلغ الظاهر بالخبر فأمر بالقبض على من بالإسكندرية من الجنوبية وختم على حواصلهم في أواخر شعبان فبلغهم الخبر، فأطلقوا من بأيديهم منهم فقدم الإسكندرية خواجا علي أخو الخواجا عثمان يجمع من أسره الفرنجة من أقارب السلطان، ففك الختم من حواصل الفرنجة وذلك في أواخر ذي الحجة... وفي تاسع عشر المحرم - ٧٩١هـ - حضر رسل صاحب جنوة ومعهم أخو عثمان الذي كان الفرنجة نهبوا مركبه وأسروا منه أخت قجماس بنت عم السلطان فأعادوا المركب بما فيه، وقدموا هدية فقبلت منهم^(٢). يتضح لنا أن هذه الحادثة كادت أن تؤدي إلى قطع العلاقات بين مصر وجنوا، وكذلك مصادرة أموال الجنوبية في مصر، فلو كانوا عبيداً هل كانت السلطة ستلجأ إلى اتخاذ كل

١ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص ٣٢٩.

٢ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص ٤٢٣ - ٤٣٩.

هذه المواقف الصارمة علماً بأنه في ذلك العصر كان الاسترقاق معترفاً به في جميع أنحاء العالم تقريباً.

ثم بنت عم السلطان المذكورة، هل هي كانت من الإماء مثلاً؟ ومن الذي اشتراها؟ فإذا كان الخواجا الذي أحضرها هو المالك الذي يبيع العبيد هل يعقل أن يسامحه السلطان لشراء بنت عمه؟ وكثير من هذه التساؤلات قد لا تجد لها جواباً شافياً، ولكن في شتى الحالات تجد أنه هناك ثغرة بل ثغرات غير واضحة، ولا يمكن أن يكونوا عبيداً، وكلمة الممالك لم تعن في عصرهم العبيد أو معنى مرادفاً لها، بل هي تسمية أطلقت للتمييز بين عصرهم والعصور الأخرى.

٢ - دولة قوية مزدهرة:

أ. غنى السلاطين:

كتب العديد من الكتاب والسياح والنقاد، وأهل البلد عن غنى السلاطين^(١)، وذكر البعض سبب غناهم بأنهم استغلوا أهل البلد، ولكن من له أية بصيرة يتضح له أن ذلك غير صحيح. وسبب غناهم نتج عن جهادهم المستمر حيث أن الإسلام أعطى للمجاهدين نصيب أربعة أخماس الغنائم من الفبيء، فهم قاتلوا حينما أحجم الكثيرون ولم يدافعوا عن الإسلام وبلادهم فكانوا هم المنقذين لبلادهم وللمسلمين، وحاربوا أعداءهم من الصليبيين والمغول وغيرهم، ووسعوا الأراضي التي أصبحت تحت سيطرتهم مما لم تكن تابعة لا للعرب ولا للمسلمين، وبعد أن عم السلام البلاد، واستقر الوضع، وانقطعت الغنائم الحربية . لتوقف الحروب والفتوحات . اتجهوا للتجارة، وتجارتهم كانت خارجية ولا مجال لاستغلال أهل البلد، فكانت تجارتهم تأتي من الهند وينقلونها إلى أوروبا عبر بلادهم. أما ما كتبه البعض عن استغلال حصل داخل البلاد فغير صحيح. إذ كانت للسلاطين والأمراء

^١ - نظم دولة سلاطين الممالك ورسومهم في مصر ج ٢ ص ٦١ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ١٢١ الطرب في العصر المملوكي ص ٢٥ صور ومظالم من عصر المماليك ص ١٠٠ مصر والبنام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٢٨٨.

إقطاعيات^(١)، وهي عبارة عن أراضٍ لم تكن لأحد، وكانت الدولة تعطيها لموظفيها من عسكريين، ومدنيين مقابل الرواتب، فيستثمرونها بأنفسهم، أو من قبل أناس آخرين بالاتفاق على نسبة من الإنتاج، علماً بأنه كان للفلاحين أراضٍ خاصة بهم، وهذه الإقطاعيات ليست وراثية لهم أي لا يملكونها ولا يستطيعون بيعها إذ الملكية للدولة. وكلما تغير العامل يأخذ إقطاعة السابق ويعطيها لغيره بدل الرواتب كما ذكر^(٢)، ولكي لا نبتعد كثيراً عن الموضوع أعود أؤكد بأن سبب الغنى هو الجهاد أولاً، فلما توقف المغول والصليبيون عن مهاجمة بلاد الشام ومصر توقفت الغنائم وسبب الغنى ثانياً هو اللجوء إلى التجارة التي هي عماد الاقتصاد لأي بلد كان، وهذا ليس بمستغرب على من يعرف الإسلام: فقد (روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اغزوا^(٣) تغنموا^(٤) وصوموا تصحوا، وسافروا تستغنوا^(٥)) رواه الطبري في الأوسط ورواه ثقات^(٦).

كان السلاطين والأمراء والجنود وأتباعهم أغنياء، والمال يأتي بالمال كما يقال، ولا غنى لهم عن بركة الله تعالى فقد (روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بينما أيوب عليه السلام يغتسل عرياناً، فخر عليه^(٧)، جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربه عز وجل، يا أيوب،

^١ - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ١٢٢ المماليك ص ١٧١.

^٢ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٢٩٨.

^٣ - اغزوا: جاهدوا في سبيل الله وحاربوا أعداء المسلمين.

^٤ - تغنموا: نالوا الأجر، وتنسع بلادكم وبكثر رزقكم.

^٥ - سافروا تستغنوا: اخرجوا في أعمال التجارة بسهم، واذهبوا لطلب البضائع يحصل لكم الغنى وزيادة الربح والسعة والنعيم بالغنى وزيادة الرفاهة (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه).

^٦ - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج ٢ ص ٧٩.

^٧ - فخر عليه (بالخاء المعجمة) أي: يسقط عليه جراد من ذهب.

ألم أكن أغنيك عما ترى، قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى لي عن بركتك^(١)،
رواه البخاري^(٢).

كان الغنى واضحاً في عصر السلاطين للجميع، والأموال تبذل في المناسبات القومية والدينية، وما يصرف فيها سواء للخاصة أو العامة بلغ الكثير كما يذكره كتاب التاريخ، ممن عاصروا زمن السلاطين، وهذا يدل على الغنى الذي كان لديهم^(٣)، كما أكدته العديد من الكتاب بعد ذلك العصر أيضاً. مما ذكر (كانت الحكومة على جانب كبير من القوة والسلطان والثراء، وذلك قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨)^(٤)، نعم أثر اكتشاف الرجاء الصالح على التجارة العالمية والداخلية، ولكن لم يكن ذلك كثيراً. كما أنه كانت تحدث بعض الأزمات خلال التجهيز للحروب وخاصة إذا قتالت، وإذا كان الجيش ينطلق من القاهرة إلى أطراف البلاد مثلاً إلى أواسط تركيا، فكان ذلك الأمر يتطلب الكثير من الموارد، وهناك بعض أعمال الغوغائيين الذين كانوا يعتمدون على بعض الأنحاء، أضف إلى ذلك الكوارث والجائحات التي حدثت في عصر السلاطين وعلى الأخص الطاعون الذي كان يفتك بالناس، ومن الكوارث الطبيعية أيضاً فيضان النيل أو قلة الماء والجفاف لكن الدولة كانت تعيد الأمور إلى نصابها، وتعود الأمور طبيعية خلال فترة قصيرة. ثم إن الحياة المعيشية نسبية، فمن تعود على الرخاء الدائم قد ينزعج إذا قلت وارداته فمعدل المعيشة ومعدل الدخل الفردي كما هو معروف يختلف من دولة إلى أخرى.

كانت للدولة مصادر دخل أخرى فضلاً عن الغنائم والتجارة الخارجية فقد كانت موارد المملكة، شأنها في ذلك شأن الإمبراطورية المملوكية، يدخل في عدادها الخراج والزكاة، وهي المقررة على أهل الذمة والعشور والمواريث الحشرية

١ - يتضح من ذلك حواز الحرص على الاستئثار من الحلال في حق من وثق من نفسه بالشكر لله، وتسميه المال الذي يكون من هذه الجهة بركة.

٢ - رباض الصالحين ص ٢١٧.

٣ - دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج ٢ ص ١٧٥ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٧ ص ١٨٠.

٤ - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص ١٩.

والتي لا يوجد وارث شرعي لها، وأجور الدولة والتجارة وضرب النقود في مصر وضرائب الأرض والخراج وهو يؤخذ من التجار والواصلين في البحر إلى مصر، والمعادن المستخرجة من الأراضي^(١)، وضريبة السفن وغيرها من الضرائب الإضافية، وأسلاب الحرب والغنائم كما ذكر^(٢)، أما المصاريف كانت تشغل نفقات الإدارة والجيش والبريد والاهتمام بتنظيف الأنهار والترع وبناء الجسور والسواقي^(٣)، بالإضافة إلى ذلك كان يطلب (أحياناً من بعض الأمراء والموظفين القيام بتلبية متطلبات السكان، وذلك بإطعام الفقراء حسب ثروة كل أمير أو موظف، أو حسب عدد المماليك الذين كان ملتزماً بإيوائهم، وكان السلطان ييبرس أول من الحق المتسولين الفقراء والصوفية بالأمراء والموظفين والتجار والأغنياء وليتولوا إطعامهم، واتخذ خلفاؤه التدابير نفسها)^(٤)، علماً بأن ييبرس هو أول سلاطين الشراكسة على الأرجح، ويعني أن بدء الاهتمام بأوضاع الشعب والعمل على تحسينه كان بداية عصر السلاطين موضوع بحث هذا الكتاب^(٥)، ومما يدل على غنى الشعب هو (فرض قازان على دمشق أربعة ملايين درهم، ولم تجد المدينة صعوبة في دفع المبلغ)^(٦).

يتضح لك غنى الشعب، وبالمطيع إذا كان الشعب غنياً فالسلاطين أغنياء. وذكرنا الأسباب العديدة لذلك، وليس السبب الاستغلال كما ذكر البعض بل بالعكس كانت العدالة هي السائدة، وكما ذكر (كانت دمشق لها من الموارد ما ورد ذكره، تنعم بثروتها التي لم تكن ولا شك موزعة توزيعاً سوياً)^(٧).

^١ - العصر المملوكي في مصر والشام ص ٣٠٩ - ٣١١ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٤ إلى ٢١٧.

^٢ - مصر والشراكسة ص ١٢١.

^٣ - دمشق في عصر المماليك ص ٦٥.

^٤ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ١٠٠ المماليك ص ٣٠٥.

^٥ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٧٤.

^٦ - دمشق في عصر المماليك ص ١٤٥.

^٧ - دمشق في عصر المماليك ص ١٤٥.

ب. دولة عالمية ينظر ويتطلع إليها:

كانت لدولة السلاطين علاقات داخلية وخارجية واسعة مع عدد كبير من الدول الإسلامية وغير الإسلامية سواء كانوا من الأعداء كمغول وصلبيين أو علاقات ود مثل اليمن والحبشة وبعضها تأرجح بين الاثنين^(١).

إجراء المعاهدات:

المعاهدات هي نصوص تكتب بين طرفين بعد إجراء مناقشات لما فيه خير الطرفين، والمعاهدات عرفت منذ القدم، قد تكون المعاهدات متساوية، منجاة لمصلحة أحد الأطراف مقابل أمن وسلامة الطرف الثاني، والمعاهدات تدل على رقي الشعوب ونبذ للحروب والخلافات، وإيجاد الحلول للمشاكل القائمة، وكانت دولة عصر السلاطين في مصر وبلاد الشام محط الأنظار لما لها من أهمية إستراتيجية لموقعها ولما لها من سيطرة واسعة. ويقول جاستون فييت عن القاهرة (هذه المدينة من الناحية السياسية والتاريخية والاقتصادية في العصور الإسلامية المتلاحقة، وبخاصة إبان حكم سلاطين المماليك البحرية والجراكسة، فيقرر بصراحة دون لبس أن القاهرة أصبحت في عصر سلاطين المماليك بمثابة عاصمة عالمية مع بقائها مركزاً إسلامياً كما أصبحت وجهة أنظار الأوروبيين بسبب الرخاء التجاري الذي نعمت به)^(٢).

نتذكر كيف عقد الرسول صلى الله عليه وسلم معاهدات داخل نطاق دولته ومع من حوله، ويذكر بأن جرى عقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل البحرين وكانوا وقتها مجوساً، وجرى عقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل نجران وكانوا نصارى^(٣).

^١ - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٦٢.

^٢ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص ١٠ - ١١.

^٣ - الجهاد في الإسلام ص ١٢٢.

اهتم السلاطين في عصرهم بالمعاهدات والعلاقات^(١)، بما يعود عليهم وعلى الشعب العربي بالخير الوفير، وكانت وسيلة ناجحة بدل الحروب (ويفضل المعاهدات الرسمية، والعلاقات السياسية الجيدة، وتبادل بعثات الصداقة وأمكن ضمان سلامة التجار، فعلى سبيل المثال أعلن المماليك عن حماية شاملة في رسالة عامة (عهد أمان) وصدرت في ٦٨٧هـ ١٢٨٨م لتوزع في الهند والصين واليمن، وكانت هذه الرسالة النظير الشرقي الضروري والبديل للمعاهدات الرسمية مع الأوروبيين، وسعت الحكومات الأجنبية بدورها لتشجيع التجارة^(٢)، وحقاً (كانت دولتهم أرقى دولة في عصرها)^(٣). وسأذكر بعض الاتصالات التي جرت بين السلاطين والأقطار والأنحاء الأخرى.

اتصالات مع الوطن العربي:

تم تبادل الاتصالات مع الأطراف العربية، ففي عصر السلطان بيبرس وصلت إليه رسل اليمن يعلنون وضع أنفسهم تحت خدمته^(٤)، والخضوع والانتماء له، وأن يخطب في بلاد اليمن باسم السلطان كما أرسل الهدايا وتحفاً كثيرة، فأرسل السلطان إليهم هدايا وسنجقاً وتقليداً^(٥)، وكذلك تبادل برقوق مع ملك اليمن رسائل عدة^(٦).

بعد أن فتح الله على السلطان بيبرس رأى أن يعلم أهل المغرب العربي فأرسل لهم الرسل ذلك ليشد أزر المسلمين على الفرنجة^(٧)، وظلت علاقات الود متصلة حتى في عهد دولة الجراكسة مع ملوك المغرب، فيذكر أنه أرسل أبو عبد الله محمد بن أبي

^١ - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٩٥.

^٢ - مدنى الشام في العصر المملوكي ص ١٩٥.

^٣ - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص ١٧.

^٤ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ١٢٨ - ٢٩٠ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٧ ص ١٤١.

^٥ - البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٥١.

^٦ - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٧٤ - ٤٣٥ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٣٥٩.

^٧ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٣٣٧ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٣٦٧.

يحيى بن أبي بكر سلطان تونس كتاباً رفيعاً فيه تهنئة صاحب تونس إلى السلطان برقوق بمناسبة عودته إلى ملكه، واستقبل برقوق رسل تونس^(١)، وكان تبادل الرسائل بين السلطان برقوق وسلطان مراكش تؤكد المودة التي بينهما^(٢).

أرسلت رسالة من أبي عبد الله محمد الأحمر من غرناطة إلى السلطان الأشرف شعبان^(٣)، وقدم سفير غرناطة المسلم مقالة إلى السلطان جقمق جاء فيها: (أنت هو كبير الملوك والسلالطين وقديم الحرمين الشريفين). وظل أمراؤها يلتمسون من جانب أقوى دولة إسلامية في ذلك الوقت، وأرسل أميرهم أبو عبد الله بن محمد رسالة للسلطان مضمونها التماس العون ووافق السلطان على مدّهم بالمال لصعوبة إرسال قوة حربية لبعد المسافة^(٤).

أرسل صاحب بغداد تبريز حسين بن أويس في جمادي الأول ٧٨٣هـ رسالة إلى السلطان برقوق، وكذلك أويس في صفر ٧٨٥هـ أرسل رسالاً إلى القاهرة ومعهم هدية وأحضروا إلى دار العدل، وأنزلوا بدار الضيافة^(٥).

اتصالات مع الدول الأجنبية:

أرسل ملك الحبشة رسالة إلى السلطان بيبرس، وأرسل السلطان جواباً له عليها، كما أرسل ملك الحبشة رسالة إلى السلطان قلاوون^(٦)، وأرسل السلطان وفداً إلى الحبشة لاستطلاع الأوضاع ثم كتب إلى ملك الحبشة ينكر عليه ويأمره أن لا

^١ - قيام دولة المماليك الثانية ص ١٥٤ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ١٢٥ - ٤٣٠.

^٢ - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي الإسلامي ص ٦٥٨ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٧٤ - ٤١٠.

^٣ - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٧٣.

^٤ - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة من المقدمة ص ص ١٤٦ - ١٤٧.

^٥ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص ٢٧٥ - ٣٢٣.

^٦ - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٤٦٨ - ٤٦٩ - ٤٩٦.

يحدث أي شيء، وكان ذلك في رجب ٧٨٣هـ^(١)، وفي أواخر عام ٧٨٨هـ وصلت إلى القاهرة رسل الحبشة بهدايا جليلة^(٢).

وصل رسل الملك شارل أخو الملك فرنسيس وهو صاحب مرسيلية، ووصلت معه العديد من الهدايا إلى السلطان بيبرس مع كتاب منه^(٣).

تبدلت الرسائل والهدايا بين السلطان قلاوون وألفونس العاشر صاحب قشتالة، وأرسل صاحب أشبيلية ألفونس رسالة إلى الظاهر يدعي ويطلب صداقته^(٤)، وحضر رسل صاحب أشبيلية من قبل ملك الكيتلان عام ٧٨٤هـ يسألون السلطان الشفاعة في صاحب سيس^(٥)، وأرسل الظاهر بيبرس رسالة إلى ملك سيس هيثوم حول إطلاق سراح ولده مقابل تسليم شمس الدين سنقر الأشقر لما تم أسره في حلب، أي تبادل الأسيرين كما تم عقد هدنة بين السلطان قلاوون وملك سيس النكفور ليفون بيتوم^(٦)، كما دخلت رسل صاحب سيس ٧٨٤هـ مع رسالة يخبر فيها أن كبير الأمن في بلادهم توفي فعكمت زوجته مدة ثم عزلت نفسها، واتفقوا على أن يفوضوا الأمر للسلطان فيختار لهم شخصاً، فاختار السلطان برقوق أميراً منهم ممن كانوا أسرى بيد المسلمين^(٧).

حضر رسل صاحب قيسارية، ورسل صاحب تكريت عام ٧٨٥هـ إلى القاهرة طالبين أن يكونوا تحت حكم السلطان وأن يخطبوا باسمه فأجيب طلبهم^(٨).

^١ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص ٢٧٠ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٨٣.

^٢ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص ٢٨٠.

^٣ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٢٠١.

^٤ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٣٩٩.

^٥ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص ٣٠٠.

^٦ - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٤٦٨ - ٤٧٢.

^٧ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص ٣٠٠.

^٨ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص ٣٢٧.

وصل الرسول الذي كان السلطان يببرس أرسله إلى الكرج بكتابين أحدهما من ملك الأبخاز والآخر من ملك تفليس مضمونهما أنهما خرجا عن التتار لأجل السلطان^(١).

حضر رسل علي باي بن قرمان صاحب قونية وغيرها من بلاد الروم في محرم ٧٩١هـ حاملين هدية فقبلت منهم^(٢).

أول عمل هام قام به السلطان بببرس هو أنه أرسل رسالة إلى الملك بركة رئيس القبيلة الذهبية، وذلك حرصاً على ضم بركة إلى الإسلام^(٣)، هذا ووصلت رسالة الملك بركة إلى مصر^(٤).

قدم رسل طقتمش خان بن أزيك سلطان الدشت برئاسة حسن بن رمضان وهو ابن نائب القرم، فقبلت هديتهم، وتمت إجابتهم، وكان ذلك عام ٧٨٦هـ، وفي العام التالي في صفر أرسل طقتمش أيضاً رسلاً مع هدية طالباً أن يكون مع السلاطين كإخوة، وفي عام ٧٨٨هـ أرسل اثنان هما الحاجب قدير ويكتمر العلاني من قبل السلطان إلى طقتمش خان وذلك من مصر إلى بلاد القبحاق^(٥).

وصل عام ٧٨٧هـ رسل الأشكري صاحب اسطمبول مع الهدايا يطلبون أن يكون لهم قنصل في الإسكندرية، وتمت الموافقة على طلبهم^(٦).

وصل في شوال عام ٧٨٧هـ تغر خجا التركماني عم قرا محمد التركماني طائعاً، وكان له الحكم على ماردين إلى الموصل وطلب أن يكون مع السلطان، وتمت الموافقة على طلبه^(٧).

^١ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٢٩٩ تاريخ الملك الظاهر ص ١٦٨.

^٢ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص ٤٣٩.

^٣ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٩ - ١٠ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٣٥٥.

^٤ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٢١٤ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣٨ العصر المماليكي في مصر والشام ص ٢٤٠.

^٥ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص ٣٤٧ - ٣٦١ - ٣٧٦.

^٦ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص ٣٦١.

^٧ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص ٣٦١.

وصل الأمير الوزير خليل بن شاهر بن الشيخى نائب ملطية في ٢٠ جمادى الآخرة ٨٤٧هـ، وقدم هديته وأعطاه السلطان خلعة الاستمرارية في نيابته^(١).

أرسل ملك التتار أحمد إلى السلطان المنصور قلاوون رسالة يطلب منه المصالحة وحقن الدماء فيما بينهم فأجابه قلاوون^(٢)، وكذلك وصل إلى دمشق من عند ملك التتار الخواجة مجد الدين إسماعيل بن محمد ياقوت السلامي ومعهم هدايا للمصالحة^(٣)، ووصل في ٢٧ جمادى الآخرة ٨٤٧هـ إلى القاهرة القان معين الدين شاه رخ بن تيمورلنك، وقاصد جهان شاه بن قرا يوسف صاحب تبريز^(٤)، ووصل إلى القاهرة جهان المذكور مرة ثانية في صفر ٨٥٥هـ، وقدموا هدية وكتاباً عربياً فكان فعواه التودد إلى السلطان وأنه تحت طاعته^(٥)، وفي يوم الاثنين ١٧ ذي الحجة ٨٥٦هـ عمل السلطان واجب الضيافة بالحوش لقضاء جهان شاه، ولتعلم السلطان بأن جهان شاه خسر عساكر يابو بن باي واستولى على عدد من البلاد، وكذلك في ١٩ ذي الحجة ٨٦٠هـ طلع جهان شاه بن قرا يوسف وقبل الأرض بين يدي السلطان وأدى رسالة مرسله بعد الإسلام^(٦).

وصل رسل من قبل إسماعيل شاه الصفوي في شعبان ٩١٣هـ يعتذر عن ما وقع من عسكره في دخولهم بلاد السلطان ويؤكد بأنه لم يكن بإذنه ولا علم له بذلك، وقبل الاعتذار^(٧).

^١ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج ١ ص ٩٥.

^٢ - البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٩٩.

^٣ - البداية والنهاية ج ١٤ ص ٩٧.

^٤ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج ١ ص ٩٥.

^٥ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج ٢ ص ٣٢٠ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١٢٤.

^٦ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج ٢ ص ٣٨٢ - ٥٩٦.

^٧ - العراق بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص ٢٢٣.

ارتبطت دولة هندستان مع سلطنة المماليك في علاقات الود والمحبة، فقد نجح محمد بن تغلق ملك هندستان وسلطان دلهي في توطيد دعائم دولته وحالف سلطنة المماليك في مصر بوصفها إسلامية مناهضة لمغول فارس^(١).

كان الهدوء والتقارب بين السلاطين والعثمانيين في بداية ظهور العثمانيين، وكان بينهما تبادل الرسائل، واستمر السلم وتبادل الزيارات والترحيب والحفاوة وتقديم الهدايا الثمينة^(٢)، فنجد السلطان مراد الأول العثماني أرسل سفارة إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية ومع ذلك لم يستطع برقوق أن يخفي مخاوفه من أطماع العثمانيين^(٣)، وبقيت العلاقات ودية، ووصل إلى القاهرة رسل السلطان بازيد ومعهم هدية للسلطان برقوق منها مائة أسير من الفرنجة الفرنسيين والإيطاليين^(٤)، واشتهر يلدرم بازيد بالجهاد في الكفار، وكاتبه السلطان برقوق^(٥)، كما أرسل السلطان برقوق رسالة لصاحب القسطنطينية^(٦)، وتجددت علاقات الود بين السلطنة العثمانية والسلاطين في مصر فأرسل مراد الثاني سفارة إلى القاهرة لتهنئة السلطان برسباي بالسلطنة ومعها هدية وقد رد السلطان على الهدية بأحسن منها، كما زادت المراسلات والسفارات والهدايا بين مراد الثاني والسلطان جقمق وحرص مراد أن يبعث لمصر عدد من أسرى انتصاره على الجانب الأوروبي عند قارنا، واستمرت السياسة الودية قائمة بين السلطان محمد الثاني والسلطان إينال^(٧)، كما أرسل السلطان العثماني محمد الفاتح إلى سلطان مصر الأشرف إينال يخبره بفتح

^١ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٣٦٦.

^٢ - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص ٢٠٣.

^٣ - العصر المملوكي في مصر والشام ص ٢٦٨ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٣٨٤.

^٤ - قيام دولة المماليك الثانية ص ١٤٧.

^٥ - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج ٢ ص ١١٩ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١٦٢.

— ١٦٣.

^٦ - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ١٥٢.

^٧ - العصر المملوكي في مصر والشام ص ٢٧٠ — ٢٧١.

القسطنطينية، كما أرسل السلطان رسالة جوابية لمحمد الفاتح^(١)، وحينما ورد نبأ وفاة السلطان العثماني أبو زيد بن محمد بن مراد خان حزن سلطان مصر الغوري، وصلى عليه صلاة الغائب، وكان آخر اللقاءات قبل بداية تحرشات العثمانيين بدولة السلاطين كان إرسال الأمير أقباي الطويل إلى سليم لتنهئته بالملك وإقامة علاقات مودة بينهما، وكان خروج أقباي في مصر في ١٠ ذي القعدة ٩١٨هـ، وعاد في ربيع الأول وقد بالغ السلطان سليم في إكرامه^(٢).

عادت رسل السلطان محمد بن قلاوون عند الملك ملقطاي ملك بلاد القبطي والجركس والقوقاز^(٣).

وصلت رسل الفرنجة في جمادي الآخرة ٩١٨هـ، رع ٧٨٨هـ بهدايا جلييلة^(٤). عقدت هدنة بين أهل جنوة وبين السلطان قلاوون^(٥)، وكذلك حضرت رسل جنوة في ١٧ محرم ٧٩١هـ، ومعهم الخواجا علي أخ عثمان الذي كان الفرنجة قد نهبوا مركبه، وقدموا هدية فقبلت منهم^(٦).

وصلت رسل جارا كما تسميه الفرنجة ويجار أخو لويس المعروف بالريد فرانس فكتب السلطان بيبرس إليه بقبول شفاعته في الساحلية^(٧).

عقدت هدنة بين السلطان المنصور وملك أراغون وأخيه ملك صقلية وأخيها الآخر، كما عقدت بين السلطان قلاوون وبين الريد راكون الرشلوني وأخيه صاحب صقلية^(٨).

^١ - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٤٤٣ - ٤٤٨.

^٢ - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص ٢٦٦ - ٢٢٩ - ٢٣٠.

^٣ - مصر والشراسة ص ٣٦.

^٤ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص ٣٨٠.

^٥ - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٤٨٠.

^٦ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص ٣٨٠.

^٧ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٢٣٦.

^٨ - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٨٤ - ٨٥.

أبرمت معاهدة بين السلطان والبندقية، وجعل بموجبها خدمات سنوية تقوم في الإسكندرية^(١)، كما أرسل السلطان فرج بن برقوق رسالة إلى دوق البندقية^(٢). عقدت معاهدة بين السلطان الغوري مع جمهورية فلورنسا وإيطاليا^(٣). كلف فلوفيان رئيس الأسبترارية مندوباً عنه إلى السلطان برسباي لعقد معاهدة مع جزيرة رودس، وقدم هدية إلى السلطان، ووعد بدفع جزية سنوية له^(٤).

ج. هل هذا عصر انحطاط:

أكد جميع كتاب عصر دولة السلاطين والرحالة والباحثون، وفيما بعد عصرهم أيضاً، سواء من العرب أو الأجانب الغنى والرخاء الذي كانت عليه دولة السلاطين (يقول المفكر العربي وواضع علم الاجتماع ابن خلدون خلال القرن الثامن الهجري ١٤م ما نصه: من لم ير القاهرة لا يعرف عز الإسلام فهي حاضرة الدنيا ويستأن العالم، ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في وجوهه تزهو الخوانك والمدارس بآفة، وتضئ البدور والكواكب من علمائه، وقد مثل بشاطئ النيل الجنة، وعلى الجانب الآخر كثيراً ما حدثنا الرحالة عن ثراء سكان القاهرة فيقول أحدهم^(٥): إذا كان لي أن أصف ثراء هذه المدينة فلن يكفيني هذا الكتاب، إذ لو أمكن ضم رومة وميلانو وأدمرة وفلورنسة أربعة أخرى من المدن بعضها إلى بعض، أقسم أنها جميعاً تحتوي نصف ثروة القاهرة^(٦).

وصف التاجر باسل الروسي القاهرة في عصر السلاطين بأنها أربعة شوارع ودروب، ولكل منها باب وحارسان، ولكل شارع منها عدد كبير من المنازل فضلاً

١ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ٦٠.

٢ - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٥١٤.

٣ - مصر والشراكية ص ٩٣.

٤ - مصر في عصر دولة المماليك الحراكسة ص ١٠٥.

٥ - حاستون فيبت.

٦ - اللبليل الموحز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص ٩ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ١٦٣.

عن سوق كبير للحاجات اليومية للسكان بعد أن تغلق الأبواب يشدد الجراكسة عليها^(١).

تدل الظواهر العمرانية على أنها دولة عالية، ولا تخلف فيها، وأهم سبب للازدهار هو اعتمادهم على التجارة التي هي من دعائم اقتصاد دولتهم^(٢)، فيصف هولاء القائد المغولي القاهرة في إحدى رسائله بأنها (كروان سراي) أي محطة تجارية عالمية، أو سوق تجاري عالمي، ويقول المقرئ في الخطط: سمعت الكافة - أي الناس جميعاً - ممن أدركتهم يفاخرون بمصر وسائر البلاد^(٣)، فالتجارة سواء المحلية والموسمية والسنوية^(٤)، كانت مربحة لأفراد الشعب^(٥)، ولا فساد فيها وكانت المراقبة الدائمة من قبل السلطة، وكان الناس مرتاحين نفسياً لذلك، والأموال متوفرة ولا مشكلة لدى أفراد الشعب فكثرت المحلات التجارية (وقد قال المسيحيون العارفون بهذه الأمور بأن في دمشق من المتاجر ما يكفي حاجات العالم المسيحي سنة كاملة)^(٦)، كما يمكن الاستدانة لفتح مشروع فقد (كان بإمكان أي واحد اقتراض المال والشروع في عمل بيع الألبسة)^(٧)، ولم تقتصر التجارة على التجارة الداخلية^(٨) فحسب بل التجارة الخارجية أيضاً وكان لهم دور الوسيط في تجارة جنوب شرقي آسيا وتركيا وإيران وأوروبا^(٩)، كما لم يكونوا مستهلكين للتجارة فقط بل مستثمرين فيها، وأنشأوا المشاريع والشركات مع تجار آخرين، وقد تشارك الأمراء والسلاطين برأس المال مع التجار^(١٠)، (إن سلاطين الشراكسة لم

١ - العصر المماليكي في مصر والشام ص ١٨٨ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ١٦٤.

٢ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ١٢.

٣ - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص ٦٩.

٤ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ٢١١.

٥ - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٣.

٦ - دمشق في عصر المماليك ص ١٠٨ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٢٥٤.

٧ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ٤٢٢.

٨ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٢٨٧.

٩ - دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج ٢ ص ٦٧ - ٦٨.

١٠ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ١٩٠.

يعملوا على الاحتفاظ بقوة مصر وسلطانها فحسب، بل عملوا كذلك على نشر تجارتها الخارجية في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وعقدوا اتفاقات تجارية^(١). وجعلت أسواق مدنها وخاصة مدينة القاهرة ودمشق متعددة ومتخصصة بمعنى أن كل سوق اختص بنوع معين^(٢).

ازدهرت الصناعة كثيراً^(٣) في مصر عصر السلاطين نتيجة لكثرة الثروة فيها، واحتلت الصناعات الحربية مكاناً بارزاً في النشاط الصناعي وجدد في القاهرة سوق كبير اسمه سوق السلاح، وكذلك ارتبطت الصناعات الحربية بالسفن إذ أنشأ السلاطين أسطولاً بحرياً قوياً يحمي الشواطئ الواسعة، وكانت السفن الحربية على أنواع منها الشواني والحراريق والطرائد^(٤)، كما عرفت مصر صناعة السجاد التي استخدمت للقصور والمساجد^(٥).

اهتم السلاطين في مصر بالزراعة اهتماماً كبيراً، حيث كانت الزراعة دائماً الحرفة الأولى لغالبية السكان والمورد الأول الذي عاش عليه معظم السكان، ومعروف أن أراضي مصر الزراعية كانت إقطاعيات وزعت بدل الرواتب، وهي غير وراثية لم تعط له، وتؤخذ منه بعد انتهاء عمله في حال تغير وظيفته، وهذه الإقطاعيات وزعت على السلطان والأمراء والأجناد وغيرهم من الموظفين، وبعد أن قسمت إلى أربعة وعشرين قيراطاً كما مسحت الأراضي الزراعية وقيست ومسحت أكثر من مرة في عصر السلاطين، وتبع ذلك فك الزمام وتعديله، هي العملية المعروفة باسم الروك نذكر منها الروك الحسامي، والروك الناصري^(٦)، وبالإضافة

١ - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٣٣.

٢ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٢٥١.

٣ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٢٣٧.

٤ - العصر المماليكي في مصر والشام ص ٢٨٨ - ٢٨٩ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٠٠.

٥ - دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج ٢ ص ٢١ - ٢٢.

٦ - العصر المماليكي في مصر والشام ص ٢٨٣ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ١٩٧ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ١٢ - ١٠١ - ١٣٤ - ١٣٥ المماليك ص ١٧١ - ١٧٢ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٢٩٧ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٢٨٣.

إلى الثروة الزراعية عني السلاطين أيضاً بالثروة الحيوانية فأكثروا من إنتاج الأغنام وجلب الأنواع الممتازة منها لتربيتها حتى ازداد عدد المواشي وارتفعت سلالتها، وكان من هؤلاء السلاطين الناصر محمد الذي عني بإنتاج المواشي والأغنام، وليس على المناطق القريبة من عاصمته، وإنما صار يتبع مراعيها في فيذاب وقوص وغيرها من أنحاء البلاد^(١).

كانت الصناعات الحرفية دوراً هاماً ومثار إعجاب للشرق والغرب على السواء^(٢)، وذلك في عصر السلاطين، فقد كانت دمشق تنتج السكر^(٣)، كما كانت تصنع فيها المنسوجات المتنوعة القطنية والحريية^(٤)، وكذلك صناعة الزجاج العادي والملون والبللور الصخري، وكانت الصناعات الخشبية^(٥)، والخزف والفخار والمزخرفات الحديدية والكاغد والصابون والعمود، كما كانت الصناعات الزيتية فقد انتشرت معاصر زيت اللفت في أرجاء البلاد، وهناك الصناعات الزيتية الصناعية مثل صناعة الزيت بعصره من السمسم فضلاً عن الكتان والذي كان يستخرج منه الزيت الحار، وكذلك صناعة الورد وماء الزهر، والشموع والأحذية^(٦)، وكانت المدينة مشهورة أيضاً بصياغة الذهب والفضة^(٧)، والنحاس، وراج تطعيم البرونز

١ - العصر المماليكي في مصر والشام ص ٢٨٧ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ١٩٨.

٢ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ١٥٤.

٣ - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٠٧ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ١٦٢.

٤ - نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج ٢ ص ٦٧ - ٦٨ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٠١ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٢٣٨ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٢٨٥.

٥ - العصر المماليكي في مصر والشام ص ٢٩٢ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٠١ - ٢٠٣ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٢٨٥.

٦ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ١٦٧ - ١٧٤.

٧ - نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج ٢ ص ١٠١.

بالنحاس والذهب والفضة^(١)، واشتهرت هذه الأعمال في القاهرة، وكان بعض الأوروبيين يفضلونها على باريس وفلورنسة^(٢)، كما اهتم السلاطين بصناعة السفن وخاصة الحربية منها^(٣)، وكذلك صناعة لوازم الدواب، وكانت لها أسواق وخاصة مثل سوق المرجلين، وسوق المهمازين، وسوق اللجميين، وسوق الحوائطين، كما كانت صناعة الورق مزدهرة في القاهرة، كما عرفت في دولة السلاطين (صناعة السكاكين والأقلام المذهبة والمطعمة بالجواهر والسلاسل الذهبية وأساور وخلاخيل النساء، والخواتم والقلادات الذهبية والفضية)^(٤).

تعددت مركز دور ضرب النقود وسكها في زمن السلاطين، وشملت عدداً من أقاليم الدولة ومدنها المختلفة بعضها في القاهرة والإسكندرية وقوص وغيرها، واستخدمت دور الضرب ثلاثة معادن لإصدار العملات النقدية وهي الذهب والفضة والنحاس^(٥).

تطورت المدن وتوسعت^(٦)، واستتب الأمن والاطمئنان (ولم يعد السكان يشعرون بالحاجة إلى ضرورة البقاء داخل أسوار دمشق، ومن ثم فقد طرأ على الضواحي تطور جذري، وهو تطور لم يجاره إلا التطور الاقتصادي في المدينة)^(٧)، فخرج الناس من القلاع ونشأت الضواحي في المدن وأصبح التطور والتوسع العمراني واضحاً في المدن وخاصة مدينة دمشق التي صارت حولها ضواحي متطورة، وكان من عوامل

^١ - العصر المماليكي في مصر والشام ص ٢٩١ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٠٥ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ١٧٣ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ٢٣٩ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٢٨٥.

^٢ - دمشق في عصر المماليك ص ١٠٤.

^٣ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ١٥٤ - ١٦٨ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٠٧.

^٤ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ١٧٠ - ١٧٢.

^٥ - النظام المملوكي النقدي ص ٥٢ - ٨٢ السكة الإسلامية في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٣٣ - ٤١ - ١٥٥ - ١٩٣.

^٦ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ١٥٥.

^٧ - دمشق في عصر المماليك ص ٦٢.

التطور الأخرى (الازدهار الاقتصادي وحكم القانون واستعادة المناطق الساحلية من الصليبيين وتركيز التجارة على الطرق السورية بسبب ما كان يعترض الطريق الشمالي البيزنطي من متاعب)^(١).

كان واضحاً اهتمام السلاطين والأمراء برفاهية المدن، فهم لم يكونوا منعزلين عن أفراد الشعب مع العلم بأنهم ليسوا من العرب، وهذه الصفة قد تجعل كلا الطرفين على حذر من الآخر ومع ذلك (وصل الاهتمام بالرخاء العام إلى القمة في القرن الرابع عشر، حيث أعطيت فترات المنصب الطويلة فرصاً لتحقيق الثراء الذاتي، ولنمو الروابط الأسرية والسياسية مع السكان الطبيعيين، وبالضرورة أدى التورط في المسائل المحلية إلى الاعتماد على الوجهاء المحليين لتحقيق الشرعية والمعونة الإدارية والسياسية)^(٢).

لقد أسهبنا في الحديث ووصف الرفاه الذي كان قائماً في عصر دولة السلاطين^(٣)، وذلك لأن الكثير كتب عن عصرهم واصفاً إياه بأنه عصر الانحطاط رغم توفر الخيرات لديهم فمثلاً كانت (تباع جميع المأكّل في الشوارع كالحبّز والماء واللحم المطهو على اختلاف أنواعه، وكل أصناف الفواكه، إذ أن الناس هناك لا يطلبون في البيوت، وأنهم يبعثون في طلب كل ما يرغبون فيه من السوق)^(٤)، ألا يدل ذلك على الرفاهة؟ وكذلك نجد المساكن التي قلما لا تجد فيها نافورة ماء، كذلك الإضاءة الليلية للشوارع، فقد كتب عن مدنها (أن جميع الشوارع الواقعة داخل سور المدينة تنيرها في الليل مصابيح معلقة فيها. وبيوتها مرتفعة مبنية من الخشب الذي لا يظهر للعيان، إذ أن جدرانها الداخلية مطلية باللون الأزرق الفاتح، وأرضها مكسوة بالفسيفساء وما أقل البيوت التي لم يكن فيها نواير منحوتة من

^١ - دمشق في عصر المماليك ص ١١٥.

^٢ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ١٢٠.

^٣ - صور ومظالم من عصر المماليك ص ٩٢.

^٤ - دمشق في عصر المماليك ص ١٠٦ صور ومظالم من عصر المماليك ص ٩٢ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ١١٧.

الرخام، وهي متعة للناظرين)^(١). وللمدن حرس في الشوارع وخاصة للمحلات التجارية^(٢)، فقد عرف عنهم أيضاً بأن (كان لهم ترتيب جميل لحراسة الشوارع التي فيها التجار والصناع ليلاً، إن أكثر شوارع دمشق مسقوفة أو معقودة يتخللها النور بالقدر اللازم من فتحات في السقف، وإذا جن الليل أوقدوا المصابيح الزجاجية في الشوارع كلها بحيث يكون بين المصباح والآخر اثنا عشر ذراعاً، فترى ليلاً كأنها في وضوح النهار، بسبب المصابيح الكثيرة التي توقد، وقد قيل إن عدد المصابيح التي كانت توقد كل ليلة كان يبلغ نحو الثلاثين ألف مصباح، وكان في كل شارع حراس يقومون على حراسة الحوانيت)^(٣)، ولتوفير أسباب الراحة للتجار والوافدين أقيمت المؤسسات التجارية المتنوعة داخل المدن وخارجها على امتداد طرق التجارة مثل الخانات والوكالات والفنادق، وكان بعضها مثل خان السبيل يقام لنزول أبناء السبيل والمسافرين بغير أجره^(٤)، ويجدر بنا أن نشير إلى أن الكتاب المعاصرين وفي أواخر عصر السلاطين أطلقوا اسم الفندق على الخان^(٥).

عرف السلاطين البريد لما له من أهمية، فقد كانت هناك مراكز للبريد منها مراكز للحمام الزاجل، حيث تربط الرسائل على أرجلها^(٦)، كما بنيت مراكز بين كل منها مسافة قدرت بتعب الفرس السريع، فتحمل الرسائل من مصر مثلاً وينطلق ساعي البريد على الحصان مسرعاً فحين يتعب الحصان يكون قد وصل إلى مركز بريد جديد فيه خيول مستريحة فيترك الحصان القديم، ويمتطي فرساً آخر، وينطلق دون توقف، وهكذا ينتقل بالخيول في المراكز المتفرقة إلى أن يصل وجهته^(٧)،

^١ - دمشق في عصر المماليك ص ١٠٥.

^٢ - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ١٨٧.

^٣ - دمشق في عصر المماليك ص ١٠٨ - ١٠٩ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ١٦٤ - ١٤٨ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٧ ص ١٣٩.

^٤ - العصر المماليكي في مصر والشام ص ٢٩٧ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ٢٠٧.

^٥ - العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٠٠.

^٦ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ١٣ - ١٤ العصر المماليكي في مصر والشام ص ٨٧ - ٣٧٠.

^٧ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٩٦.

واستفاد كافة الناس من هذه الخدمات وبالأخص التجار^(١)، والصناع ولنقل أخبار تحركات الأعداء، وكانت المعاملة في المراكز العديدة ميسرة فقد (منح التجار إلى جانب الحماية مساعدة هامة بالخدمات الرسمية، والنزل المتعددة على طول الطرق الرئيسية، والتي دعمتها الدولة أو الأطراف، وتمكنوا بذلك من إيجاد المأوى والزاد، وهكذا كانت هذه الخدمات ذات قيمة كبيرة وكلفة عالية)^(٢).

أولى السلاطين عناية خاصة بالصحة العامة عن طريق فتح البيمارستانات أي المشافي للمعالجة والتعليم، واعتنوا بالنظافة العامة للمدن^(٣) فقد (طلب حاكم دمشق من القضاة والشهود المصادقة على الإجراءات اللازمة لمصادرة الحمامات والمراحيض الملوثة لماء نهر بردى، ونجد في أمثلة أخرى أنه تم الحصول على إذن بهدم المنازل والمتاجر)^(٤).

اهتم المماليك بالدفاع عن البلاد ضد أي اعتداء على دولتهم إضافة إلى حفظ النظام الداخلي، وهذا كان العمل الأساسي لديهم، ولكن في فترات السلم كانت العناية توجه إلى العمران وتجميل المدن وتوسيعها، وحفظ الأمن إضافة إلى اهتماماتهم الاعتيادية على تعليم أفراد الشعب بالمجان والعناية بالمساجد. وقبل أن أختتم الكتاب أود الإشارة إلى اهتمام السلاطين بلغة الضاد لغة القرآن الكريم ولغة العرب وعنايتهم الفائقة بها وعدم محاولتهم فرض لغة أخرى على شعوبها فقد كانت (اللغة الرسمية في عهدهم اللغة العربية... وكانت دولتهم أرقى دولة في عصرها)^(٥).

١ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٢٨٦.

٢ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ١٩٧.

٣ - العصر المملوكي في مصر والشام ص ٣٢٨ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص ١٦٤ مدن والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٢٨٨.

٤ - مدن الشام في العصر المملوكي ص ١١٠.

٥ - العراق بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص ٧.